خواطر من زمن بعيد
د. عبدالغفار مكاوي بين الفلسفة والشعر

بقلم: أ. د. وفاء إبراهيم(*)

مقدمة

من دواعي الفخر لجيلنا، أن تعلمنا على يد أساتذة هم من رواد تدريس الفلسفة في مصر؛ ورغم اختلاف التخصصات وتنوع مناهج التناول حتى في التخصص الواحد، فقد أودعوا فينا ذاتية الوعي في قدرته على اختيار زاوية النظر لمشكلة أو قضية فلسفية ما، ومن ثم رسخوا فينا جرأة اختيار التخصص، والسعي الدؤوب نحو السؤال؛ألم يقل هيدجر: «أن السؤال طريق المعرفة»؛ وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العلم خزائن بابها السؤال».

وفي اليوم العالمي للفلسفة الذي أقره اليونسكو عام ٢٠٠٤، وقد حَضَرتُ الاحتفال به بالمجلس الأعلى للثقافة في حضور مندوبة اليونسكو، وأساتذة الفلسفة، وكتبتُ مقالة عن ذلك في جريدة الأهرام، أقول: «أن في هذا اليوم الذي يأتي ووطننا يعاني ما يعانيه من أخطار، وتعاني فيه الفلسفة من اغتراب واستبعاد يهدد وجودها كأداة فاعلة في تشكيل مستقبل الوطن». ولا أخفي دهشتي - في هذا الصدد - من تجاهل دعوة مفكرينا من أساتذة الفلسفة للمشاركة في كتابة مقدمة الدستور التي تمثل رؤية ثقافية شاملة للوطن، لأنهم الأقدر والأعمق في رسم حدودها وطموحها.

ومما يُعزّي النفس هو هذه الدعوة الكريمة للمشاركة في هذه الاحتفالية التي تأتي «كقطرة ندى تسقي في الفجر زهرة حزينة» كي تعيد لها بعض الألق، فضلًا عن التحدث عن أحد الأساتذة الأجلاء وهو الأستاذ القديرأ. د.عبد الغفار مكاوي، الذي علمنا كيف نبتعد عن الضجيج ونصمت ونتأمل حتى نتعرف على ذاتنا، وهو نفسه الذي حذرنا من الطموح المتجاوز

(*) أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بكلية البنات - جامعة عين شمس.

مع ضرورة العيش مع الممكن والتزام الحدود والاعتدال، حتى لا نصل إلى الشمس بأجنحة إيكاروس المصنوعة من الشمع، فتكون لحظة الصعود هي نفسها لحظة السقوط.

وقد احتار الطلبة الجادين حوله، وسألوا أنفسهم حينًا أو زملائهم حينًا آخر من هو د.عبد الغفار مكاوي؟

هل هو الفيلسوف العميق المتأمل، أم هو الشاعر المعذّب المتألم من شعوره بالإحباط أو الاضطهاد؛ وحتى تتبين معالم الصورة التي رسمتها له عبر زمن طويل، سأتحدث عن ثلاث جوانب:

١- الأستاذ «حيث درسنا علي يديه مادة الفلسفة الحديثة».

٢- ازدواجية الفكر والفن لديه.

٣- الإنسان فيه.

أولًا: الأستاذ

في أول محاضرة للفلسفة الحديثة، لفت نظرنا المظهر الرومانتيكي الذي أتسم به أستاذ مادة الفلسفة الحديثة، حيث تري في عينه دموع لا تسيل ولا تجف، كما تسمع صوتًا هادئًا رزينًا، وتلمح شبح ابتسامة لا تكتمل، كلاسيكي الملبس، وحين بدأ الدرس الفلسفي وتتابعت المحاضرات وجدنا عالمًا أكاديميًا عميقًا في فكره، له خطه الخاص لا يعتمد على الإبهارالأولي للطلبة، و إنما كان متحليًا بالصدق الفلسفي الذي يسعى من أجل الحقيقة، وبه يصل إلى من يريد أن يشاركه تناول الطعام على مائدة الحوار الفلسفي.

ولذا هو بالفعل عَلمنا من خلال تدريسه لنا أن نتفرج على التركيبة الفكرية للفيلسوف حتى نستطيع فك طلاسم شبكتها ؛بهدف العثور على منهجه أي طريقته التي فهم بها الأشياء حين استقبلها، ثم كيف رتبها ونظمها وأقامها نسقًا فلسفيًا، وعندما نعثر على منهج الفيلسوف، سنحدد مصطلحاته التي هي عبارة عن تركيبة لغوية دقيقة، وعند تحليلها سينفتح أمامنا طريق الحوار التاريخي الذي أداره الفيلسوف مع ما قبله، وبمتابعة الدراسة والقراءة فهمنا أن الفيلسوف عندما يحاور أي فيلسوف هو لا يحاوره «ذاته» و إنما يحاور موديلًا معينًا فهمه لحسابه «ومن هنا تأتي القراءات المختلفة للفيلسوف الواحد بحسب زاوية النظر والمنهج».

وقد كانت أول خطوة لنا في فهم ذلك مع شرح أستاذنا الجليل لكانط، لقد شعرنا إن كانط فيلسوف له مكانة خاصة لدى الأستاذ، حيث وصفه في البداية بأنه أخصب وأثرى المحطات الفلسفية الحديثة، ثم قام بفرد الخيوط المتعددة والمتنوعة التي أمسك بها كانط، ونسج منها مذهبه، حيث جمع فيه بين الجانب العقلي والتجريبي، وقد نبهنا الأستاذ أن من أراد أن يفهم الفلسفة وأن يمارسها فعليه-بداية- أن يفهم كانط، وبذلك وضع الصخرة أو العقبة الكؤود التي لا بد لكل من أراد السير في الطريق أن يتجاوزها- فانتبهنا- وكان أول خيط نسجه أستاذنا هو خيطًا بسيطًا من حياة كانط الشخصية، حيث وجد فيها رافدًا يضاف إلى الروافد الفكرية الأخرى، فقد ولد في كونسبرج في روسيا ١٧٢٤، ولم يغادرها إلا فترة قصيرة للتدريس في قرية قريبة، كان نحيفًا، هزيلًا، فقيرًا، وكانت أمه من جماعة دينية تسمى «التقوية»، ترى أن الدين «مكانه القلب» أي الإرادة، وأن الإيمان يسكن في الداخل ويتجلى في أعمال الإنسان من محبة وتسامح.

المدهش أن هذه التربية أدت إلى شيئين:

أنه لم يذهب إلى الكنيسة عندما أصبح رجلًا لأنه كان يذهب مجبرًا وهو صغير.

أن الإيمان قد تعمق في داخله بحيث لا يقبل أي موجة إلحاد.

ثم عاش كانط في مرحلة أخرى هى مرحلة الشك في الدين؛ لأنه يخدم الكبار من خلال النقد الذي قدمه «فولتير» وبه شق الطريق إلى الثورة الفرنسية، بالإضافة إلى ما أثاره هيوم من شك معرفي.

كذلك أشار أستاذنا -وهو يرسم لنا صورة كانط - إلى دقة تنظيم حياة كانط إلى الدرجة التي كان جيرانه يضبطون الساعة على الرابعة والنصف، وهو ميعاد نزهته اليومية، ولم تنكسر هذه العادة إلا مرة واحدة عندما قرأ «إميل» لروسو. وقد عاش أعزبًا، لأنه كان دائم التردد في الارتباط، وفكر مرتين في الزواج ولكن طال به التفكير فخُطبت الأولى على أخر، وانتقلت الثانية إلى بلد أخرى، وعاش محبًا للبحث والمعرفة، ثم قدم ثالوثه النقدي الذي «فجر من خلاله أراء خطيرة عمت أوربا، ووصف أستاذنا مذهب كانط بالمذهب الشهي ولكنه عسير الهضم.وعندما انتقل إلى مرحلة لم الخيوط وجمعها، وجدنا كانط يقف في مواجهة غلاة المنادين بتمجيد العقل كفولتير، وفي مواجهة غلاة التجريبيين مثل لوك وهيوم الذي أيقظ كانط، كما يقول- من نعاسه الدوجماطيقي».

وبدأ كانط يرفع صيحة الرفض في وجه العقل وحدوده في نقد العقل النظري الخالص، ولعل هذا يعود إلى نشأته الدينية، وقد علق الأستاذ بعبارة أتذكرها جيدًا، لقد فُزع كانط وشعر أن لا معني لأي شيء ولا للإنسان ولا للحياة، فعمل على إنقاذ الإنسان، وقد استدعت هذه العبارة إلى ذهني ما قاله.أستاذنا عن ديكارت حين كان يشرح لنا كيف تأكدت الثنائية على نحو شامل على يديه، وإنه بذلك - في نظر الكثيرون - وراء التقدم التقني من حيث كونه نشاطًا عقلانيًا، وعليه فإن هذا كان أفظع كارثة حدثت للفكر الإنساني، وأشار إلى البعض الذي يسعى إلى استعادة وحدة الإنسان بالبدء بالسلوك العملي لا النظري، وبذلك تتضح [طريقته الدرامية في الشرح التي أدت بنا إلى فهم تركيبة أستاذنا القدير].

ومن ثم نجده وهو يشرح لنا اهتم بخيطًا أخر مهم نسج منه كانط مذهبه هو «روسو» الفيلسوف الفرنسي الذي عاش فترة إعلاء شأن العقل والهبوط بالشعور والعاطفة إلى أسفل الدرجات، حيث رأى كانط في رسالته التي تقدم بها روسو في مسابقة أجرتها أكاديمية ديجون الفرنسية بين الكتاب وكان موضوعها «هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أم إصلاحها؟»، وقد فاز روسو بالجائزة. حيث رأى أن الثقافة أقرب إلى الشر منها إلى الخير، وانها سبب الانحطاط الأخلاقي، وأن الرجل المفكر حيوان سافل، وأن التعليم ينمي ذكاء الإنسان فيستخدمه في الشر فأجدر بنا أن نعتمد على الشعور بالغريزة الإنسانية الخيرة لأنها أولي بالثقة من العقل.

بعد هذا الاستعراض الثري والعميق لكانط، قال لنا الأستاذ:رأيتم كيف تحددت الخيوط أمام كانط - هكذا كان يشد انتباهنا «لفعل الفرجة» على التركيبة العقلية للفيلسوف مستطردا وشارحا المشهد: مثاليون يؤكدون على العقل، وتجريبيون يشيدون بالتجربة، وشكاك يرفضون الاثنين، ثم تساءل الأستاذ: لمَّ الاقتصار على بعد واحد، لمَّ لاتتضافر في الإنسان أبعاده جميعها؟ ثم أجاب هذا ما حاول أن يفعله كانط، فهل استطاع أن يؤلف قوى الإنسان ويجعله كلًا واحدًا، أم أنه أبقي الإنسان متشظيًا يَعرف بعقله الرياضيات والعلم الطبيعي، ويَسلك بإرادته الواجب الذي يترتب عليه خلود النفس ووجود الله؟

ومن الواجب أن أعترف أنني أدين بفهم كانط على عسره لأستاذنا الجليل، الذي علمنا كيف نفهم وننقد من خلال شبكة مركبة شديدة التعقيد، وعلى من يطمح الوصول إلى الحقيقة أن يَقوم بتفكيكها بصبر وتأمل وتعاطف؛ ويبدو أن طريقته في الشرح والنقد والتعليقات الدرامية من لحظة إلى أخرى جعلت منه هدفًا للحوار، للتعرف والاقتراب منه أكثر من المدرج.

ثانيًا: ازدواجية الفكر والفن:

قلت لزميلة صديقة: لدى بعض الأسئلة لأستاذنا (د.عبد الغفار) قالت لي ناصحة، لا داعي إن كثيرا من الطلبة يقولون أنه بيعقد المواضيع وينصح بقراءة عدد كبير من المراجع الفلسفية والنصوص الأدبية يعني تعب قلب، كفاية علينا د.حسن حنفي وإلى عمله فينا؛ ولكن قررت الصعود إلى القسم ووجدته منكبًا على حقيبته يبحث عن شيء ما، استأذنته ممكن أسأل حضرتك سؤالا؟رفع رأسه وقال: «أتفضلي»، بسرعة سألته: «أستاذنا إن كانط صعب جدًا لكن حضرتك أوضحته لنا»، قال: «شكرًا»، قلت: «لكن اعتقد أن لوك هو الذي أيقظ كانط، وليس هيوم، لأن لوك هو الذي جعل من العقل صفحة بيضاء Tabula rasa (.L) تنطبع عليها الإحساسات، أى أن العقل عقل فارغ»، نظر لي بعينه الدامعة وقال: «يجوز»، قلت له: «نحاول يا دكتور نطبق طريقة شرحك لنا حتي نفهم الفيلسوف لحسابنا»، هنا ارتفع صوته قليلًا، ورأيت «نظرة» فيها شيئًا من التحذير، وبعض من عدم الثقة في جيلنا، لأنه بالفعل جيل لم يُتح له ما أُتيح لجيل د.مكاوي أو من سبقوه من روادنا من سفر طويل إلى الغرب استكملوا به أدوات مهمة كاللغة والتعرف على ثقافات مختلفة على نحو مباشر، وكذلك المشاركة في حوار عالمي، على أية حال هذا استدراج كان له ضرورة للجيل الجديد، قال الأستاذ لي: «أن تكوني جادة خير، لكن لا تكوني، طموحة بما يتجاوز إمكانياتك»، أجبت عليه في أدب «إن الطموح ليس عيبًا»، وانصرفت ودار حوار مع نفسي ؛هل هذا موقف من المرأة في مجال الفلسفة الصعب، أم هو موقف عام من المرأة التي تتميز بالمبادرة وهي تشير -عنده- إلى الطموح والقوة والثقة بالنفس، حاولت أن ابتعد عن هذه المشاعر السلبية فهو أستاذ قدير وهذه وجهة نظره، ومن ثم دفعني هذا الموقف إلى شيئين إيجابيين:

١- البحث عن مؤلفات الأستاذ لأفهم تركيبته العقلية.

٢- السعي الحثيث والجدية سواء في الدراسة أو التخصص الدقيق وهو «علم الجمال» حتى نثبت أن الأساتذة العمالقة لا يقدمون إلى مجال الفلسفة أقزاما.

بعد رحلة قراءة ممتعة في كثير من مؤلفات الأستاذ بدأت «بمدرسة الحكمة»، ثم «البلد البعيد»، وقد أفادني دراسته في هذا الكتاب عن «الشاعر العاطفي والشاعر الساذج» في رسالتي للماجستير عن «مفهوم النفس الجميلة عند فريدريش شيللر» الفيلسوف والشاعر

الألماني صديق جوته شاعر ألمانيا الكبير، وشيللر هو الشاعر العاطفي، شاعر الفكرة : ولكنه فيلسوف أديب استطاع أن يتجاوز كانط ويسد فجوات نظريته الجمالية وهو ما أوضحته في دراسة عنوانها «دور الحدس في المعرفة الجمالية»، فقد أنتبه شيللر إلى أن الخاصية الرابعة للحكم الجمالي، وهي خاصية الجهة Modality (E.) «وهي جهة الضرورة بطبيعة الحال» التي تعتمد على الحس المشترك، وكأن الذات تشرع للبشر أجمعين وهذا فرض ميتافيزيقي استخدمه كانط حتى يتجنب القول بحدس هو مفهوم عقلي من شأنه أن يحقق للحكم الجمالي صفتي الضرورة والتعميم بسهولة، فجعل شيللر من الذات الجمالية سلطة تشريع جمالي موجودا وجودًا موضوعيًا في الإنسان من خلال التربية الجمالية، وحاول أن يتواصل مع كانط بالرسائل والحوار إلا أن الفيلسوف «المتجهم» أبى أن يعترف بدعوة شيللر أن يكون للعاطفة دورًا في الحكم الجمالي وربما شعر أن ذلك سيدمر هذا الحكم الذي أراده كانط قبلي تتوافق فيه «المخيلة مع الذهن» والقول بحدس عقلي يجعله أولي تركيبي، ساعطي مثالا: «هذه وردة (موضوع) جميلة(محمول)»؛ سنجد أن صفة جميلة (المحمول) يضيف شعورا باللذة إلى الحكم الجمالي ويصبح أوليا تركيبيا.

لكن على أية حال هكذا علمنا أستاذنا الجليل الانتقال من الفرجة على تركيبية عقل الفيلسوف إلى نقده ثم إلى تجاوزه.ولكن أعتقد أن مفهوم التجاوز ذاته يضرب بجذوره في وعي أستاذنا الفيلسوف ويُدق على شيء ما حاول به أن يجنب الإنسان عمومًا من خيبة الفشل، فقد ركز وهو يشرح لنا عصر النهضة كمقدمة للفلسفة الحديثة على مسرحية «فاوست» لجوته من حيث إنها تمثل روح هذا العصر، عصر الذاتية والوعي الذي رفض سلطة الكنيسة، وتقبل روح العلم بديلا عنها، كما عاد مفكري هذا العصر إلى التراجيديا اليونانية يبحثون فيها عن أدوات التعبير الذاتي وفتح آفاق الحرية الفكرية.

وكان فاوست جوته المعبر عن هذه الروح الطموحة التي أخطأت الطريق ولم تعد إلى الله إلا عن طريق الشيطان؛ ولكن هل تعلم الإنسان؟ أنه إلى الآن يجد العذاب والسعادة في مواصلة السعي في كل لحظة لا يرضيه شيء، كما قال فاوست عن نفسه - وقد تتخذ للأسف الخطايا الدين قناعا كما يحدث الآن - ولعل هذا التصارع أو الازدواجية بين الروح الشعرية والفكر لدى أستاذنا جعلني استمر في قراءة مؤلفاته التي تشع بنوع من الجدلية الروحانية، فليس كل جدلي لا بد أن يكون روحانيًا، فالجدلية الروحانية تجنب الإنسان التحيز

أو العداوة، وتحرض في داخله الفينومينولوجية الأصيلة، فتضفي على كتابته سمة السهل الممتنع أو السلاسة والمتعة وهي خصائص كتابة أستاذنا منذ «ثورة الشعر»، «النور والفراشة»، «قصيدة وصورة»، «المنقذ»، «لمَّ الفلسفة»، «نداء الحقيقة»، «دراساته عن كانط»، غير الترجمات المسرحية والشعرية، واعتقد أن هذه الجدلية بين الشعر والفكر يمارسها أستاذنا على نحو تلقائي لأنه نظم الشعر وكتب القصة، وهو يؤلف بينهما في تفاعل - كما يقول في كتابه «شعر وفكر» - لتحقيق التزاوج العسير بين الفكر والفن، بحيث يلتف الفكر في غلالة الفن وينهل الفن من نبع الفكر.

ثالثًا: الإنسان:

إذا أردت أن أتحدث عن إنسانية الأستاذ الجليل، أقول بأمانة أنها سمة قد لا يعرفها إلا من تعامل معه من خلال مواقف ؛فهو كريم لا يبخل بالعلم أو الإمداد بالكتب لطلابه المجتهدين. وقد سمعت من أصدقاء له إنه أيضًا كريم ماديًا، حيث مر أحد أصدقائه بضائقة مالية، فأعطاه كل ما يملك دون تحديد سقف زمني لرد المبلغ، كذلك هو حييي كما يتسم بالتواضع، وأن كنت أرى غلالة من الإحساس بالاضطهاد الذى قد يكون ناتجا عن شعوره بانه لم يقدر حق قدره، واطمئنه بأن حجم التقدير لشخصه وإنتاجه معا كبيرا جدًا في الأوساط الفلسفية والأدبية.

ولعلي اكتشفت هذه الخاصية من خلال تركيزه على المفاهيم الدرامية لدي الفلاسفة الكبار، والمفاهيم الفلسفية لدى الأدباء الكبار حيث أن الدراما عنصر رئيسى يحيا فيه كإنسان على المستوى الخاص، أو عند اهتمامه بالإنسان بصفة عامة وذلك من خلال القضايا التي يهتم بها، ولذا هو يختار مثلًا فلاسفة أدباء مثل أفلاطون، كانط، هيدجر، شيللر، ونماذج أدبية تتسم بالنزعة الفلسفية مثل جوته، وكامي، وشيلر.حيث أن الدراما تفرغ عقولنا من التفاهة وتخصبها بنوع من الطاقة الروحية من خلال العلاقة بين الإنسان والواقع والسياسة والقدر.

ولعلى أجتهد أخيرًا في تفسير علاقة أستاذنا القدير بالشاعر الألماني الكبير جوته، وأتساءل هل كان جوته المعادل الموضوعي أو القناع الذي استخدمه في التعبير عن علاقته بالواقع ولاسيما وأن جوته له نفس التركيبة الشعرية الوجودية المؤمنة، حيث عبر عن طموح الإنسان في فاوست حين يتجاوز الحدود والاعتدال، إلا أن جوته نفسه كتب مسرحيته عن الشاعّر «تاسو»، شاعر بلاط الأمير الفونسى الثاني (الإيطالي)، وترجمها أستاذنا وهي مسرحية رائعة

صورت بدقة علاقة الصراع بين الشاعر والسياسة التي كان يمثلها «أنطونيو» وحبه اليائس للأميرة «ليونورا شقيقة الأمير»، والقارئ عندما يقرأ المقدمة، والتوثيق يستشعر أن «تاسو» يقترب من حيث الروح الشعرية وهي الأصل والمنبع الصافي للإبداع -أقول يقترب بذلك من شخصية أستاذنا الإنسانية، ونظرة بسيطة ستجد أن هذا الأصل الشعري هو النور الذي تسعى له الفراشة، وتنتقل به من القصيدة إلى الصورة ولا تعرف هل هو بداية الانكشاف، أم بداية الإظلام والنهاية؟

لذا كل من يتحلى بهذه التركيبة هو ككل متمرد حاول أن يلقي بالنور في ظلام الواقع منذ بروميثيوس، و إيكاروس والحلاج، وأبو العلاء المعري أو أنت أو أنا أو غيرنا فهذا المتمرد يكمن في تركيبته الشخصية شيء خاطئ يُزيد من حيرته، ومن أحساسه بالألم والعذاب الوجداني، ولكن في رحلة الحياة البائسة لا بد أن نواجه اليأس بالبأس، وننظر أين نضع أقدامنا ونحلق بخيالنا ونحلم من أجل عالم أفضل بشرط واحد هو ألا نكسب العالم، ونخسر أنفسنا، بمعنى أن نحتفظ بالنبل والكبرياء اللذين احتفظا بهما تاسو في أزمته، واحتفظت بهما الأميرة حين قالت لتاسو:

- الجمال الذي يبدو أنكم لا تجلون سواه يفني و يزول ما يبقي منه لا يجذب أحدًا، وما لا يجذب فلا أثر فيه للحياة.
- لو أن الرجال عرفوا كيف يقدرون قلب المرأة لو تبينوا أي كنز نقي من الحب والوفاء يمكن أن يضمه صدر امرأة.
- لو أن ذكرى الساعات الجميلة النادرة بقيت حية في نفوسكم، إذن لأشرق علينا يوم جميل.